الوظيفة السياسيّة للكذب الحديث

ألكسندر كويري

ترجمة: الحسين سحبان

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

© 2015
جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

الوظيفة السياسيّة للكذب الحديث(*)

ألكسندر كويري

ترجمة: الحسين سحبان

* **Alexander Koyeré, "*La fonction politique du mensonge moderne*" in:**

Revue Rue Descartes, 8/9, Albin Michel, 1993, pp. 179-192

Première publication: dans la revue Renaissance, Ecole libre des Hautes Etudes, sous le titre: "Réflexions sur le mensonge", New York, 1943, p. 95-111; puis republié dans le numéro du juin, 1945, de Contemporary Jewish Record, revue de l'American Jewish Commite, sous ce nouveau titre, reproduit dans ce numéro de la R. Rue Descartes: "The Political Function of Modern Lie"

ما سبق أن كذب الناس أبداً قدر ما يكذبون اليوم، ولا سبق أن كذبوا بوقاحة وبنظام وثبات مثلما يفعلون اليوم.

قد يقال لنا إنّ ذلك ليس بصحيح، وإنّ الكذب قديم قدم العالم، أو على الأقل إنّ الانسان كاذب منذ البدء، وإنّ الكذب السياسي قد ولد مع المدينة نفسها، كما يخبرنا التاريخ بذلك على نحو مستفيض، وإنّنا نرى أخيراً، دون حاجة إلى الرجوع إلى مجرى العصور السالفة، أنّ شحن الأذهان، إبّان الحرب العالمية الأولى، والكذب الانتخابي في الفترة التي تلتها، قد بلغا مستويات وحققا إنجازات قياسية سوف يكون من الصعب جداً تجاوزها.

هذا كله صحيح بلا ريب أو على وجه التقريب. إذ من المؤكد أنّ الإنسان يُعَرَّفُ بالكلام، وأنّ الكلام يؤدي إلى إمكان الكذب، وأنّ الكذب أخصّ بالإنسان من الضحك، ولو كره بورفير Porphyre. ومن المؤكد كذلك أنّ الكذب السياسي وجد في كلّ الأزمنة، وأنّ قواعد وتقنيات ما كان يسمى في الماضي "ديماغوجيا"، ويُسمّى اليوم "بروباغاندا"، قد نُظمت ودُوّنت منذ آلاف السنين[1]، وأنّ منتوجات هذه التقنيات في دعاية الإمبراطوريات المنسية والمندثرة ما تزال تخاطبنا من أعلى جدران الكرنك وأحجار أنقرة.

لا جدال في أنّ الإنسان كذب على الدوام، كذب على نفسه وعلى الآخرين، كذب لمتعته الخاصة؛ متعة ممارسة تلك القدرة العجيبة على "أن يقول ما ليس موجوداً"، وعلى أن يخلق بكلامه عالماً هو وحده المسؤول عنه وصانعه. كذب الإنسان أيضاً للدفاع عن نفسه؛ فالكذب سلاح، إنّه السلاح المفضل لدى الحقير، والضعيف[2] الذي يقوم، وهو يخدع عدوه، بإثبات ذاته والانتقام منه[3].

لكنّنا لن نقوم هنا بتحليل فينومينولوجي للكذب، ولا بدراسة المكانة التي يحتلها في بنية الكائن البشري: لو رمنا ذلك للزمنا كتابة مصنف بكامله. ما نود أن نخصه ببعض التأملات إنّما هو الكذب الحديث، وعلى نحو أضيق وأخص، الكذب السياسي في العصر الراهن. إذ بالرغم من الانتقادات التي سوف توجه إلينا، أو تلك التي نوجهها لأنفسنا، فإنّنا نظل مقتنعين بأنّ العصر الراهن، أو بعبارة أدق الأنظمة الكليانية totalitaires، قد جددت تجديداً قوياً في هذا المجال على نحو لم يسبق له وجود في العصر القديم.

[1] نجد [منذ القدم] في محاورات أفلاطون، وخاصة في خطابة أرسطو، تحليلاً بديعاً ورائعاً للبنية السيكولوجية للدعاية، ومن ثم لتقنيتها.

[2] عندما يخدع الضعيف خصمه- أو سيده- فإنّه يظهر "أقوى" منه.

[3] أن يخدع أحد أحداً آخر يعني أيضاً أن يذله ويهينه، وهذا ما يفسر كذب النساء والعبيد الذي يكون في غالب الأحيان مجاناً.

لا ريب أنّ هذا التجديد ليس كليّاً، وأنّ هذه الأنظمة لم تفعل سوى أنّها سارت ببعض الاتجاهات والمواقف والتقنيات التي كانت موجودة قبلها بزمن طويل إلى منتهاها. فلا شيء في العالم بجديد على نحو تام. لكل شيء منابع وجذور وبذور. وكلّ ظاهرة أو فكرة أو نزعة إذا ما سير بها إلى منتهاها فسدت وانقلبت إلى شيء مختلف اختلافاً ملموساً.

لم يكذب الناس بالقدر الذي يكذبون به اليوم، فثمة يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة ودقيقة بعد دقيقة سيول غزيرة من الكذب تنهمر على العالم. لقد سُخّر لخدمة الكذب الكلام والكتاب والجريدة والمذياع... سُخّر له التقدم التكنولوجي برمّته. وصار الإنسان في العصر الحديث- وهنا أيضاً يتجه فكرنا إلى الإنسان الكلياني totalitaire- يسبح في بحر من الكذب، ويتنفس الكذب، ويخضع للكذب في كلّ لحظات حياته[4].

أمّا كيْفُ الكذب الحديث- نقصد كَيْفَه العقلي- فقد تطور في منحى عكسي لتطور كَمِّه، وهذا شيء مفهوم على كلّ حال. قوام الكيف المميز للكذب الحديث في أنّه يصنع بالجملة (الكتلة) ويوجه إلى الجمهور(الكتلة)، fabriqué en masse et s'adresse à la masse. وكل إنتاج - وخاصة كلّ إنتاج عقلي- موجّه إلى الجمهور مجبر على خفض **معاييره**. لذلك، إذا كان لا شيء يضاهي رهافة تقنية الدعاية الحديثة، فلا شيء يضاهي فظاظة محتوى إقراراتها الكاذبة التي تكشف عن ازدراء مطلق وكلي للحقيقة، بل عن ازدراء حتى لمجرد شبه الحقيقة. وهو ازدراء لا يساويه إلا الازدراء -المتضمن فيه- للقدرات الذهنية لدى من تخاطبهم تلك الإقرارات.

حتى إننا قد نتساءل- وقد وقع التساؤل فعلاً- عمّا إذا كان ما يزال يحق لنا أن نتحدث هنا عن "الكذب". ذلك لأنّ فكرة "الكذب" "mensonge"، تفترض فكرة الصدق "véracité"، التي هي ضدها ونفيها، كما تفترض فكرة الباطل "faux" فكرة الحق "vrai". يجاهر فلاسفة الأنظمة الكليانية الرسميون بالإجماع على أنّ تصور حقيقة موضوعية واحدة بالنسبة إلى الجميع لا معنى له، وأنّ معيار الحقيقة "Vérité" ليس هو قيمتها الكونية، بل مطابقتها لروح العِرق والأمّة والطبقة، معيارها هو منفعتها العرقية والوطنية أو الاجتماعية. وإذ يتمم الفلاسفة الرسميون للأنظمة الكليانية النظريات البيولوجية والنفعية وسياسة العمل أو الفعل الملموس، حول الحقيقة ويسيرون بها إلى منتهاها، ويقترفون على هذا النحو الجريمة التي سُميت بحق "خيانة المثقفين" فإنّهم ينكرون القيمة الخاصة للفكر الذي لا يعدونه نوراً، بل سلاحاً لا يكمن هدفه ووظيفته على ما يقولون لنا في كشف الواقع، أي ما هو موجود، وإنّما يكمن هدفه

[4] يرتبط النظام الاستبدادي والطغياني بصورة جوهرية بالكذب. لذلك لم يكذب الحكام أبداً في فرنسا بمقدار كذبهم منذ اليوم الذي قال فيه الماريشال بيتان، وهو يفتتح السير نحو النظام الطغياني: "أمقت الكذب".

ووظيفته في مساعدتنا على تغيير الواقع وتحويله، وذلك بإرشادنا وتوجيهنا إلى ما ليس موجوداً. ومن أجل ذلك فإنّ الأسطورة، كما سبق الاعتراف بذلك منذ زمن طويل، غالباً ما تفضل على العلم، كما تفضل الخطابة التي تخاطب الأهواء على البرهان الذي يخاطب العقل.

لذلك فإنّ ممثلي الأنظمة الكليانية قليلاً ما يرتبكون أو يتحيرون في شأن الحقيقة الموضوعية في منشوراتهم (حتى تلك التي تدّعي أنّها موضوعية) وخطبهم ودعاياتهم. وإذ يعدّون أنفسهم أقوى من الله العلي القدير نفسه فإنّهم يحولون الواقع كما يحلو لهم، بل يحولون حتى الماضي.[5] وكما حصل في بعض المرات، يمكن أن نستخلص من ذلك أنّ الأنظمة الكليانية تقع في ما وراء الحقيقة والكذب.

نعتقد من جانبنا أنّ ذلك ليس بصحيح، إذ يظل التمييز بين الحقيقة والكذب وبين الخيالي والواقعي صالحاً حتى في تصورات الأنظمة الكليانية نفسها. وكلّ ما في الأمر أنّ موقعيهما معكوسان: إذ تتأسس هذه الأنظمة على **صدارة الكذب وسيادته**.

مكانة الكذب في الحياة البشرية غريبة ومدهشة. فقواعد الأخلاق الدينية - على الأقل في ما يتعلق بالديانات الكونية الكبرى، خاصة منها تلك المنحدرة من الديانة التوحيدية الإنجيلية- تُدِينُ الكذب إدانة صارمة ومطلقة. وهذا أمر مفهوم على أيّ حال: إذ لما كان إله هذه الديانات إله النور والوجود، فإنّ ذلك ينتج عنه بالضرورة أنّه أيضاً إله الحقيقة. فالكذب، أي قول ما ليس موجوداً، وتشويه الحقيقة وإخفاؤها، هو إذن خطيئة، بل إنّه خطيئة فادحة جداً؛ إنّه خطيئة الغرور والكبر، وخطيئة ضد العقل والروح، إنّه خطيئة تبعدنا عن الله وتجعلنا معارضين له. إنّ كلام إنسان عادل، وكذلك كلام الله، لا يمكن ولا ينبغي أن يكونا إلا كلام الحقيقة.

أمّا المذاهب الأخلاقية الفلسفية - إذا استثنينا بعض حالات التشدد مثل مذهبي كانط وفيخته- فإنّها على وجه العموم أكثر تساهلاً في ما يتعلق بالكذب، لها سمة إنسانية أكثر مما سواها. وإذا كانت متشددة في ما يتعلق بالصورة الموجبة والفعالة للكذب، وهي **تزييف الحقيقة** suggestio falsi، فإنّها أقل تشدداً بكثير في ما يتعلق بالصورة السلبية والمنفعلة للكذب، وهي **إخفاء الحقيقة** suppressio veri. تعرف هذه المذاهب، كما يقول المثل، أنّه "ليست كل حقيقة صالحة لأن تقال". على الأقل ليس دائماً وليس لجميع الناس.

[5] من المفيد من هذه الزاوية دراسة الدرس التاريخي للأنظمة الطغيانية، وتنوعاته. تقدم الكتب المدرسية لمادة التاريخ في المدارس الفرنسية مادة خصبة للتأمل.

تضع المذاهب الأخلاقية الفلسفية في حسبانها، بقدر أكبر بكثير ممّا تفعل المذاهب الأخلاقية المبنية على أساس ديني خالص، أنّ الكذب يُعبّر عنه بالكلمات، وأنّ لكل كلام[6] مخاطَـباً[7] يقصد به. فما من أحد يكذب "في الخلاء". فمن يكذب إنّما يكذب على أحد آخر، مثلما أنّ من يقول الحقيقة إنّما يقولها لأحد آخر. وإذا كانت الحقيقة "غذاء للنفس" فإنّها غذاء للنفوس القوية[8] بصورة خاصة. فقد تكون الحقيقة خطيرة على غير تلك النفوس، على الأقل الحقيقة في حالتها الخالصة. ثم إنّه ينبغي مراعاة ظروف [قول الحقيقة]، والكيفية التي سوف يستعملها بها من سوف تقال لهم.

ليس هناك إذن، في الحالة العامة، إلزام أخلاقي بقول الحقيقة لجميع الناس. وليس لجميع الناس الحق في أن يطالبونا[9] بأن نقول لهم الحقيقة.

تتساهل القواعد الأخلاقية الاجتماعية - وهي قواعد الأخلاق الحقيقية التي تعبر عنها العادات وتحكم أفعالنا في الواقع- أكثر بكثير أيضاً من قواعد الأخلاق الفلسفية. إنّها على وجه العموم، تستنكر الكذب وتستقبحه. يعرف جميع الناس أنّ فعل الكذب "قبيح".[10] غير أنّ هذا الاستنكار شتان أن يكون مطلقاً، كما أنّ تحريم الكذب شتان أن يكون كليّاً. هناك حالات يتساهل فيها في شأن الكذب، ويسمح به، بل يوصى به.

هنا أيضا لو أردنا أن نستوفي التحليل حقه لذهب بنا ذلك بعيداً جداً. بإمكاننا، في جملة الأمر، أن نلاحظ أنّ الكذب يتساهل في شأنه حين لا يُضِر بالسير الحسن للعلاقات المجتمعية، حين "لا يؤذي أي أحد من الناس".[11] إنّه مباح طالما لم يفصم الرابطة المجتمعية التي توحد المجموعة، أي طالما يمارس خارج دائرة المجموعة، والـ"نحن"، وليس داخلها: لا يخدع المرء "أهله". أما الآخرون[12]... فيجوز خداعهم، أليسوا، على وجه التحديد، "آخرين"؟

إنّ الكذب سلاح، فمن الجائز إذن استعماله في الصراع. بل قد يكون من الغباوة ألا يستعمل فيه. لكن شريطة ألا يستعمل إلا ضد الخصم، وألا يُرَدَّ نحو الأصدقاء والحلفاء.

---

[6] كلمة "كلام" مأخوذة هنا في معناها الأوسع، وهو التعبير أو الإيحاء. إذ من الواضح أنّ من الممكن للشخص أن يكذب دون أن يفتح فمه.

[7] تعد الأخلاق الدينية الحقيقة واجباً يلتزم به نحو الله، وليس نحو البشر. فهي تحرم الكذب "أمام الله" وليس "على البشر".

[8] يرد هذا الاعتبار أحياناً حتى في الأخلاق الدينية. الحليب للصغار، والخمر للكبار، كما قال القديس بولس.

[9] ندين بالحقيقة لمن نقدرهم، ولرؤسائنا. وفي مقابل ذلك، يتضمن رفض الحقيقة تنقيصاً، وعدم احترام.

[10] "إنّ الكريم لا يكذب". فالصدق فضيلة أرستقراطية، مرتبطة بفكرة "الشرف". أما بالنسبة إلى العبد، فإنّ الصدق ليس فضيلة، بل واجباً، وإلزاماً.

[11] النفاق في الأشكال العرفية للسلوك الاجتماعي، مثل الأدب، والمجاملة، وما أشبههما، ليس "كذباً".

[12] "الأهل" لهم الحق في الحقيقة، أما الـ"آخرون" فليس لهم الحق فيها.

يمكن إذن، بصفة عامة، أن نكذب على الخصم، وأن نخدع العدو. هناك مجتمعات، مثل الماورسيين Maoris، تبلغ بهم الشجاعة والكرم حد تحريم خدع الحرب على أنفسهم. وهناك أيضا عدد أقل من المجتمعات، مثل الكواكريين Quakers والوهابيين Wahabites، يصل بها التدين إلى حد تحريم كل كذب تجاه الآخر والغريب والخصم. لكن يكاد الناس يسلمون في كل مكان بجواز الخديعة والمكر في الحرب.

لا ينصح، على وجه العموم، بالكذب في العلاقات السلمية. ومع ذلك (على اعتبار أنّ الأجنبي عدو بالقوة) لم يكن الصدق véracité يُعدّ أبداً خصلة رئيسة للدبلوماسيين.

يظل الكذب إذن مقبولاً، كثيراً أو قليلاً، في التجارة. وهنا أيضاً ترسم لنا العادات والأعراف حدوداً تضيق على نحو متزايد.[13] على أنّ أشد العادات التجارية تحجراً تتساهل، دون تردد، في شأن الكذب الصريح في الإعلان [الإشهار].

يتساهل في الكذب إذن ويسلم به. لكن الأمر ليس على وجه التحديد أكثر من التساهل في الكذب والتسليم به، وذلك في بعض الحالات. فهو يظل حالة استثنائية، مثل الحرب فيها وحدها يصير من الصواب والخير استعماله.

لكن ما ذا لو تحولت الحرب من الحالة الاستثنائية والعرضية والمؤقتة إلى الحالة الدائمة والعادية؟ من الواضح أنّ الكذب سيتحول هو أيضاً من حالة الاستثناء إلى الحالة العادية والطبيعية، وأنّ مجموعة اجتماعية تجد نفسها وتشعر بأنّها محاطة بأعداء، لن تتردد أبداً في استعمال الكذب ضدهم. قل الحقيقة لأهلك واكذب على الآخرين، تلك هي القاعدة التي سوف تتبعها المجموعة المذكورة في سلوكها وتدخلها في عاداتها وأعرافها.

لنذهب إلى مدى أبعد، ولنتمم القطيعة بين الـ"نحن" والـ"آخرين". لنحول العداء الواقع فعلاً إلى كراهية جوهرية، على نحو ما، لها أساسها في طبيعة الأشياء نفسها.[14] ولنجعل أعداءنا منذرين بالخطر وأقوياء. فمن الواضح أنّ المجموعة بأكملها، وهي تجد نفسها وسط عالم من الخصوم الذين لا يقهرون ولا يقبلون المصالحة، سوف تبدو لها هوّة تنفغر بينها وبين هؤلاء الخصوم؛ هوّة لا يعود في إمكان أي رابطة

[13] كانت في القديم فكرة التاجر والكذب مترادفتين. "من لا يخدع، لا يبيع شيئاً"، كما يقول مثل سلافي قديم. والشعار المقبول اليوم هو أنّ **الأمانة أفضل تدبير honesty is best policy**.

[14] أفضل وسيلة للغلو في التعارض، هي أن نجعله تعارضاً بيولوجياً. فليس من قبيل الصدفة أن تتحول الفاشية إلى عنصرية.

اجتماعية ولا أي التزام اجتماعي أن يعبر فوقها.[15] يبدو واضحاً أنّ الكذب- الكذب على الـ"آخرين" طبعاً- داخل مثل هذه المجموعة وبالنسبة إليها لن يكون فقط متساهلاً فيه، ولا قاعدة للسلوك المجتمعي وحسب: سيصير الكذب حينئذ إجبارياً، وسوف يتحول إلى فضيلة. وعلى العكس من ذلك، فإنّ الصدق في غير محله، والعجز عن الكذب، شتّان أن يُعدّ خصلة من خصال الإباء والكرم، ولسوف يعتبر نقصاً أو عيباً وعلامة ضعف وعجز.

إنّ التحليل الذي قمنا به، مع اتسامه بالاختصار وعدم الاستيفاء، ليس مجرد تمرين جدلي أو دراسة مجردة لإمكان نظري خالص. إنّه على النقيض من ذلك تماماً؛ فالمجموعات الاجتماعية التي حاولنا وصفها باختصار هي مجموعات ملموسة وواقعية أكثر من غيرها. فلن نجد صعوبة في ضرب أمثلة وتعدادها لمجتمعات تتسم بنيتها الذهنية، بدرجات متفاوتة، بالسمات الأساس، أو إن شئنا بالانحراف الأساس الذي أتينا على الإشارة إليه.[16]

وهذه الدرجات، التي تتبعنا سلمها المتصاعد تعبّر، في ما يبدو لنا، عن فعل ثلاثة عوامل:

1) درجة التباعد والتعارض بين المجموعات التي يتعلق بها الأمر. فشتان بين العداء الطبيعي نحو الغريب الذي هو عدو بالقوة، بل ربما هو عدو بالفعل، وبين الكراهية المقدّسة التي تلهم المحاربين في حرب دينية،[17] وشتان بين هذه الكراهية وبين الشراسة البيولوجية التي تحرك المحاربين في حرب إبادة عرقية.

2) نسبة ميزان القوى؛ أي درجة الخطر الذي يهدد المجموعة موضوع الدراسة من قبل جيرانها الأعداء. إنّ الكذب، كما سبق أن قلنا، سلاح. وهو على الأخص سلاح الضعيف: فلا نلجأ إلى الخديعة والمكر ضداً على من نكون متأكدين من سحقهم دون أن نعرض أنفسنا لمخاطر كبيرة. يلجأ إلى الخداع بعكس ذلك للإفلات من الخطر.[18]

---

[15] الحرب حالة طبيعية، وعدوانية العالم الخارجي...[مثالان] لموضوعات وعي الذات التي يلقنها الطغاة لشعوبهم.

[16] لنضرب لذلك، كيفما اتفق، مثال تدرب الشاب الإسبارطي، والشاب الهندي على الكذب؛ وكذا ذهنية الماراني marrane [الماران les marranes هم يهود إسبانيا ثم البرتغال، المضطهدون والمرغمون، من قبل محاكم التفتيش، على اعتناق المسيحية، والمستمرون مع ذلك في ممارسة ديانتهم اليهودية سرًّا- المترجم]، أو ذهنية اليسوعي jésuite.

[17] ما تترجمه عبارة "من لا يكتم عقيدته فهو غير مؤمن" non servatur fides infidelibus هو عقلية الحرب الدينية.

[18] الكذب سلاح؛ لذلك فإنّنا لا نستعمله إن لم نكن مهددين، ومعرضين لخطر. ينتج عن ذلك أنّ تجمعًا ما لن يعتمد قاعدة الكذب إلا إذا تعرض، بسبب ضعفه، للهجوم والاضطهاد. وإذا لم يتعرض لذلك، فإنّه يبقى خالياً من الفساد والانحراف الذي درسناه [هنا]؛ وذلك حتى وإن شكل – كما هي حال الجنيين les Jaina والبارسيس Parsis – طائفة مغلقة على نحو صارم ومطلق.

3) درجة تواتر الاحتكاكات بين المجموعات المتعادية وبين أعضائها. والواقع أنّه إذا لم يحصل أبداً لهذه المجموعات، مهما بلغت معاداتها لبعضها بعضاً، أن اتصل بعضها ببعض، أو إذا لم يحصل لها هذا الاتصال سوى في ساحة المعركة، وإذا لم يكن أعضاء إحدى المجموعتين يعاشرون أبداً أعضاء المجموعة الأخرى، فلن تسنح لهم إلا نادراً- في ما عدا خداع الحرب- فرصة الكذب على هؤلاء الأعضاء. إنّ الكذب يفترض الاتصال، ويقتضي المخالطة ويستلزمها.

تقتضي منا الملاحظة الأخيرة أن نوسع التحليل فيها قليلاً. لنلغي الوجود المستقل للمجموعة التي نحن بصدد الحديث عنها، ولنغمرها بأجمعها في العالم المعادي لمجموعة غريبة عنها، ولنغطسها بأتمها في قلب مجتمع عدو لها، تظل مع ذلك في اتصال يومي مباشر معه: فمن الواضح أنّ ملكة الكذب وفضيلة الكذب سوف تكون داخل مجموعتنا هذه، وبالنسبة إليها ضرورية، بدرجة تتناسب مع مقدار تعاظم الضغط الخارجي على المجموعة، واشتداد التوتر بين الـ"نحن" والـ"آخرين"، وتنامي كراهية الـ"آخرين" وتهديدهم للـ"نحن".

لنذهب بهذه الحالة مرّة أخرى إلى حدها الأقصى، ولنجعل العداوة تتزايد إلى أن تصير مطلقة وشاملة. فمن الواضح أنّ المجموعة التي نحن بصدد تتبع تناسخاتها سوف تجد نفسها ملزمة بأن تختفي، أن تختفي اختفاء فعلياً، أو أن تلجأ إلى الكذب لتتوارى عن أنظار الآخرين، وتفلت من أعدائها، وتتفادى تهديدهم مستترة تحت جنح ليل السر.

لقد صار العكس من الآن كليّاً: سيصبح الكذب عند مجموعتنا، بعد أن صارت سريّة،[19] أكثر من كونه فضيلة، ليصير شرطاً لوجودها وبقائها، ونمطاً للكينونة المعتادة؛ سيصير الكذب بالنسبة إليها أساساً وأوّلاً.

وبسبب السر نفسه، فإنّ بعض السمات المميزة لكل مجموعة اجتماعية بما هي كذلك، سوف تـُبْرَزُ أكثر من غيرها، ويبالغ فيها بإفراط. وهكذا يقوم كل تجمع مثلاً بنصب حاجز بينه وبين الآخرين، قابل للنفاذ والاختراق بدرجات متفاوتة، ويخص كل تجمع أعضاءه بمعاملة مفضلة، ويؤسس بينهم درجة من الاتحاد والتضامن و"الصداقة"، ويولي كلّ تجمع أهمية خاصة للحفاظ على حدود الفصل بينه وبين الـ"آخرين"، ومن ثم للحفاظ على العناصر الرمزية التي تشكل، على نحو ما، محتوى هذه الحدود؛ يعتبر

[19] أهملت السوسيولوجيا إهمالاً تاماً دراسة التجمعات السرية. فنحن نعرف، بدون شك، المجتمعات السرية في إفريقيا الاستوائية؛ لكننا، على العكس من ذلك، نجهل كل شيء، أو على وجه التقريب، عن المجتمعات السرية التي وجدت، وما تزال موجودة، في أوروبا. أو إن عرفنا تاريخ هذه المجتمعات، فإنّنا نجهل البنية النوعية لهذه المجتمعات، التي كان جورج تسيمل Georg Zimmel، الوحيد الذي أقر بأهميتها.

كل تجمع، أو على الأقل كل تجمع حي، الانتماء إلى المجموعة حظوة وشرفاً،[20] ويرى في الوفاء للمجموعة والإخلاص لها واجباً على أعضائها، وأخيراً فإنّ كل تجمع، ما أن يقوى بنيانه ويتماسك ويبلغ عمقاً معيناً، حتى يشتمل على قدر من التنظيم وقدر من التسلسل الهرمي.

تتفاقم كلّ هذه السمات في التجمع السري: يظلّ الحاجز، مع بقائه ضمن بعض الشروط، قابلاً للاجتياز، غير قابل للنفاذ،[21] ويصبح الانضمام إلى المجموعة اجتيازاً لطقوس القبول initiation لا رجعة فيه،[22] ويتحوّل التضامن إلى تعلق مشبوب وإقصائي، وتكتسب الرموز قيمة مقدسة، ويصير الوفاء للمجموعة واجباً أعلى، وربما يكون أحياناً الواجب الأوحد لأعضائها، وإذ يصير التسلسل الهرمي سرّياً، فإنه يكتسب هو أيضاً قيمة مطلقة ومقدسة تزداد المسافة بين مراتبه، وتصبح سلطته لا محدودة، وتصير **الطاعة العمياء** perinde ac cadaver أساساً للعلاقات بين أعضاء المجموعة ورؤسائها، ومعياراً لتلك العلاقات.

غير أنّ هناك ما هو أكثر من ذلك، وهو أنّ كل تجمع سري، سواء كان تجمعاً مذهبياً أو تجمعاً من أجل الفعل، طائفة مغلقة أو تجمعاً تآمرياً- علاوة على أنّ الحدود بين هذين الضربين من التجمع يصعب رسمها، لأنّ التجمع من أجل الفعل يكون أو يصير دائماً على وجه التقريب تجمعاً مذهبياً- هو تجمع **ذو سر**، بل ربما **ذو أسرار**. نقصد بقولنا هذا أنّ التجمع، حتى حين يكون تجمعاً خالصاً من أجل الفعل، مثل عصابات السطو أو التآمر، وليس له عقيدة مذهبية باطنية ésotérique وخفية، يلزمه حفظ أسرارها الغامضة mystères عن طريق حجب هذه الأسرار وسترها عن أعين من لم يجتازوا طقوس القبول إلى المجموعة، فإنّ وجوده متوقف توقفاً لا انفصام له على حفظ السر وكتمانه، بل على حفظ سر مزدوج: سر وجوده الخاص، وكذلك سر أهداف عمله وتصرفه.

ينتج عن ذلك أنّ الواجب الأسمى لعضو من أعضاء تجمع سري ما، وهو الفعل الذي يظهر فيه تعلقه بهذا التجمع والوفاء له، ويتأكد به انتماؤه له ويتأيد، يكون قوامه بصورة ظاهرة التناقض في إخفاء

[20] هناك، بدون شك، تجمعات – مثل فصيلة الهنود الحمر المعروفة باسم باريا le Parias – تعتبر، هي نفسها، الانتماء إلى التجمع نحساً أو عاراً. ومثل هذه المجموعات غالباً ما تنتهي إلى الاختفاء والانقراض في آخر المطاف. ولكن ما دامت موجودة، فإنّها تعتبر كل فرار منها خيانة.

[21] النموذج الكلاسيكي لمجتمع سري هو ذلك الذي يقع الانتماء إليه عن طريق اجتياز طقوس خاصة تشتمل، على العموم، على درجات؛ وهناك أيضًا مجتمعات سرية وراثية، ولكنها نادرة جدًّا، ويحصل الانتماء إليها هي أيضاً بالخضوع لطقوس وتدريب خاصين. فما يورث في هذه التجمعات، في العمق، هو هذه الطقوس التي تحفظ بالوراثة.

[22] لا تكون التجمعات التي يتم الانتماء إليها عبر طقوس خاصة سرية بالضرورة.

هذه الواقعة.[23] [عليه] إخفاء ما هو إياه، ولكي يستطيع ذلك، [عليه] التظاهر بما ليس هو إياه: ذلك إذن هو نمط الوجود الذي يفرضه بالضرورة كل تجمع سري على أعضائه.

إخفاء أحد لما هو إياه، وتظاهره بما ليس هو إياه... يتضمن ذلك بالبداهة: ألا يقول أبداً ما يراه، وما يعتقده، ويتضمن أيضاً: أن يقول دائماً عكس ما يراه وما يعتقده. فليس الكلام في الحقيقة بالنسبة إلى كل عضو من أعضاء تجمع سري ما سوى وسيلة لإخفاء تفكيره.

وهكذا فإنّ كلّ ما يقال باطل ومزيف. كل قول، أو على الأقل كل قول نطق به أمام العموم، هو كذب. وما لا يقال، أو على الأقل الأشياء التي لا يكشف عنها إلا لـ"الأهل"، هي وحدها التي تكون صحيحة أو يمكن أن تكون صحيحة.[24]

إنّ الحقيقة إذن هي دائماً باطنية ومستورة. لا تكون أبداً في متناول أي كان من الناس، ولا في متناول العامي والجاهل. وليس حتى في متناول من لم يستكمل طقوس القبول والانضمام إلى المجموعة السرية.

ويكون كل عضو من أعضاء التجمع الجدير بدوره واعياً تمام الوعي بذلك. لذلك لا يثق أبداً في ما يسمع قوله **أمام العموم** من قبل عضو من أعضاء تجمعه الخاص. وبصورة خاصة، فإنّه لن يسلم أبداً بما يعلنه رئيسه **أمام العموم بوصفه حقاً**. ذلك لأنّه ليس هو من يخاطبه [حينئذ] رئيسه بكلامه، وإنّما يخاطب به الـ"آخرين"؛ الذين ينبغي عليه أن يضلهم ويُعْمِيهم ويخدعهم ويمكر بهم.[25] وهكذا تعبر ثقة عضو تجمع سري ما في رئيسه عن نفسها، بمفارقة جديدة، في رفض تصديق ما **يقوله ويعلنه**.

لا ريب أنّ من الممكن أن يُعـْتـَرَضَ علينا بأنّ تحليلنا، مهما يكن صائباً، يبتعد عن الموضوع. إلا أنّ الحكومات الكليانية ليست للأسف سوى مجتمعات سرية محاطة بأعداء مهدِّدين وأقوياء؛ وهي ملزمة بسبب ذلك بأن تلتمس حماية الكذب، وأن تختفي وتستتر.[26] حتى "الأحزاب الوحيدة" التي تشكل هيكل هذه الأنظمة الكليانية لا تستطيع، كما سيقال لنا، أن تشترك في شيء مع التجمعات المتآمرة: إنّها تعمل بالفعل

[23] يختلف الأمر تماماً بالنسبة إلى تجمع مفتوح قائم على الدعاية الدينية أو السياسية، ويسعى أعضاؤه إلى التضحية بأنفسهم من أجل إثبات عقيدتهم، وتعد الشهادة le martyr بالنسبة إليهم وسيلة للدعاية والفعل.

[24] لذلك ينبغي التمييز بدقة بين الإعلان العمومي، وبين تبليغ الحقيقة الباطنية، بهذه الدرجة أو تلك من السرية، إلى الأتباع المريدين، والمرشحين ليكونوا أتباعاً مريدين.

[25] الثقة بالأخبار والتصريحات المبطنة بأسرار، إبانة عن نقص في التدرب على الانتماء إلى المجتمع السري، وفقدان الأهلية لهذا الانتماء.

[26] إنّنا نعرف مع ذلك إلى أي حد تنمي الأنظمة الطغيانية لدى أتباعها وشعوبها سيكولوجية العادل المضطهد، والشعب المختار المحاط بعالم من الأعداء الذين يغمطونه حقوقه، ويهددونه في وجوده. إنّه قلب للوضع الفعلي القائم، يحرض لدى الطغيانيين انتفاضة [شعور] النقص والدونية.

في واضحة النهار. لذلك بدلاً من أن ترغب في الانغلاق، وأن تقيم حاجزاً بينها وبين الآخرين، فإنّ هدفها المعلن والواضح للعيان، هو بالضبط أن تمتص كل هؤلاء "الآخرين"، وأن تضم الأمّة (أو العرق) وتشملها بأجمعها.

ومن ناحية أخرى يمكن الاعتراض كذلك على الصلة التي نقيمها بين الكليانية totalitarisme والكذب. فمن الممكن التأكيد على أنّ الحكومات الكليانية بدلاً من ستر أهدافها القريبة والبعيدة وإخفائها، فإنها تعلنها دائماً في **كل مكان وأمام الملأ** urbi et orbi (وهو ما لم تكن أبداً لأي حكومة ديمقراطية شجاعة القيام به)، والتأكيد على أنّ من السخافة أن نتهم بالكذب أحداً مثل هتلر الذي أعلن أمام الملأ عن برنامجه (بل نشره مطبوعاً في كتابه كفاحي Mein Kampf)، ثم طبّقه بعد ذلك حرفياً.

هذا كله صحيح بلا ريب، ولكنه ليس صحيحاً إلا بصورة جزئية. لهذا فإنّ الاعتراضات التي

عرضناها لا تبدو لنا حاسمة بتاتاً.

صحيح أنّ هتلر (وكذلك رؤساء بلدان كليانية أخرى) أعلن أمام العموم عن برنامج عمله كاملاً، ولكنه فعل ذلك بالضبط لأنّه كان يعلم أنّ الـ"آخرين" لن يصدقوه، وأنّ تصريحاته لن تحمل على محمل الجد من قبل من لم يجتازوا طقوس الدخول فى حزبه؛ فقد كان، وهو يقول الحقيقة للآ"خرين" على وجه التحديد، متأكداً من أنّه يخدعهم، وينوّم أعداءه وخصومه.[27] وهذه إحدى التقنيات الماكيافيلية القديمة للكذب من الدرجة الثانية، وهي أكثر تقنيات الكذب انحرافاً وفساداً، تصبح فيها الحقيقة هي نفسها مجرد آلة خالصة للخداع.[28] ويبدو من الواضح أنّ هذه "الحقيقة" ليس بينها وبين الحقيقة [الحقة] أي قاسم مشترك.

صحيح أيضاً أنّ الحكومات والأحزاب الكليانية ليست مجتمعات سرية بالمعنى الدقيق للكلمة، وأنها تعمل بصورة علنية. بل تعمل بمساعدة قوية من الإشهار. وذلك لأنّ الأمر يتعلق على وجه التحديد **بتآمر في واضحة النهار**، وفي ذلك يكمن التجديد الذي تحدثنا عنه أعلاه.

إنّ التآمر في واضحة النهار- هذا الشكل الجديد والعجيب لتجمع العمل الخاص بالعصر الديمقراطي، وبعصر حضارة الجماهير- لا يحيط به ما يهدده، ومن ثم لا يحتاج إلى التنكر والتخفي، إنّه على عكس ذلك، لما كان ملزماً بالتأثير في الجماهير واستمالتها والاستحواذ عليها وتنظيمها فإنّه في حاجة

[27] لقد استعملت تقنية الكذب من الدرجة الثانية، كما هو معروف، من قبل الدبلوماسية البيسماركية. واستخدام الكذب من الدرجة الثانية منافساً للكذب البسيط – فيرتبك الخصم نتيجة لذلك ويحتار- خاصية مميزة للدبلوماسية الطغيانية الاستبدادية.

[28] هذه التقنية إنّما هي خداع للخصوم؛ أما "الأقرباء" والمريدون، **ومن هم جديرون بأن يكونوا منهم**، فإنّهم يجدون فيها إعلاناً للحقيقة وتعبيراً عنها.

إلى الظهور في ضوء النهار، بل في حاجة إلى تكثيف هذا الضوء على نفسه، وعلى الأخص تكثيف الضوء على رؤسائه. كما أنّ أعضاء هذه التجمع ليسوا في حاجة إلى الاختباء: إنّهم يستطيعون على عكس ذلك إظهار انتمائهم إلى تجمعهم، إلى الـ"حزب"، في وسعهم أن يجعلوا انتماءهم هذا مرئياً وقابلاً للتعرف من قبل الآخرين، بل حتى من قبل أتباع حزبهم عن طريق حمل علامات خارجية ورموز وشارات وعصابات المعصم، بل من خلال ارتداء لباس موحد، وأداء حركات أو إيماءات طقوسية أمام الملأ. ولكن على قدر ما يكون هؤلاء أعضاء في مجتمع سري - وهذا على الرغم من الواقعة التي أتينا على ذكرها، وهي أنّ المؤامرة المكشوفة في واضحة النهار تنحو بالضرورة نحو صيرورتها تنظيماً للجماهير- فإنّهم يحافظون على مسافة بينهم وبين الآخرين. ولن يؤدي حمل علامات خارجية للتعبير عن الانتماء إلى الـ"حزب" إلا إلى تأكيد التعارض مع الآخرين، وجعل الحاجز الذي يفصلهم عن الخارجين عن الـ"حزب" أوضح؛ ويتخذ التسلسل الهرمي الداخلي للـ"حزب" مظهر التنظيم العسكري وبنيته، والقاعدة التي سوف تتبع بدقة هي: **من لا يكتم عقيدته لا يكون وفياً**. ذلك لأنّ [التجمع] المتآمر في واضحة النهار إن لم يكن مجتمعاً سريّاً فإنّه مجتمع ذو أسرار.

لن يمحو الانتصار، أي نجاح المؤامرة، السمات التي أتينا على وصفها، سوف يقتصر على إضعاف طرف، وتقوية الطرف الآخر، وسوف يقتصر، خصوصاً، على تقوية شعور الطبقة الحاكمة الجديدة بالتفوق، واقتناعها بانتمائها إلى النخبة، وإلى أرستقراطية منفصلة تماماً عن الجمهور.[29]

ليست الأنظمة الكليانية شيئاً آخر غير هذه المؤامرات المتولدة من الكراهية والخوف والحسد، وهي مؤامرات تذكيها الرغبة في الانتقام والسيطرة والنهب أو الاغتصاب، إنّها تلك المؤامرات التي نجحت [نجاحاً كلياً]، أو نجحت **نجاحاً جزئياً** (وهذه نقطة هامة): نجحت في فرض نفسها داخل بلدانها، والاستيلاء على السلطة، والاستحواذ على الدولة. بيد أنّها لم تنجح -أو لم تنجح بعد- في تحقيق الأهداف التي حددتها لنفسها،[30] وتستمر لهذا السبب نفسه في التآمر.

قد نتساءل عما إذا لم تكن فكرة المؤامرة المكشوفة **تناقضاً إضافياً**. إذ تتضمن المؤامرة الغموض والسر. فكيف يمكن لها إذن أن تحدث في واضحة النهار؟

[29] كان يمكن أن نسميها "أرستقراطية الكذب" لو لم يكن اللفظان المكونان لهذه العبارة متنافرين. ذلك لأنّ نخبة للكذب هي نخبة كاذبة بالضرورة؛ إنّها طبقة سيئة cacocratie، لا طبقة نبيلة aristocratie.

[30] من يعرف كيف يقرأ جيداً يجد هدف السيطرة على العالم مصوغة بوضوح في كتاب هتلر كفاحي *Mein Kampf*.

لا ريب في أنّ كل مؤامرة تتضمن سراً، وهو سر يهم بالضبط أهداف فعلها، وهذه الأهداف بالتحديد هي التي ينبغي أن تخفيها لكي تحققها، ولا تكون معروفة إلا من قبل من هم "في المؤامرة". غير أنّ المؤامرة في واضحة النهار لا تشذ بتاتاً عن هذه القاعدة، ذلك لأنّه، كما قلنا منذ قليل، إن لم تكن [المجموعة المتآمرة] **مجتمعاً سريّاً**، فهي، مع ذلك، **مجتمع ذو أسرار**. على أنّ السؤال هو كيف يمكن لمجتمع من هذا النوع، أي لمجتمع يعمل في الساحة العمومية، ويسعى إلى تنظيم الجماهير وتخاطبها دعايته، كيف يمكن لمثل هذا المجتمع أن يخفي سراً ويصونه؟ إنّه سؤال مشروع تماماً. بيد أنّ الجواب عليه ليس من الصعوبة بالقدر الذي يبدو به لأول وهلة. بل إنّه جواب سهل إلى حد ما، لأنّ حفظ سر من الأسرار ليس له إلا وسيلة واحدة: عدم كشفه، أو عدم كشفه إلا لمن يوثق بهم، وهم نخبة ممن اجتازوا طقوس الدخول في المجتمع السري.

والحال أنّ الحاصل في المجموعة المتآمرة هو أنّ تلك النخبة المطلعة داخلها على الأهداف الحقيقية للمؤامرة، إنّما تتكون من القادة والأعضاء المسيرين للـ"حزب". وبما أنّ هذا الحزب يمارس عملاً علنياً، ويعمل قادته علنياً، ويكونون ملزمين بعرض مذهبهم بصورة علنية، وبإلقاء خطب وتصريحات علنية، فإنّ ذلك يترتب عليه أنّ كتمان السر يستلزم تطبيق القاعدة التالية بصورة ثابتة: كل إقرار علني هو إقرار مرموز وكذب، يستوي في ذلك إقرار مذهبي مع وعد سياسي، كما تستوي النظرية[31] أو العقيدة الرسمية مع التزام متعاقد عليه بمعاهدة.

تظل قاعدة **من لا يكتم عقيدته فهو لا يكون وفياً** هي القاعدة العليا. ومن اجتازوا طقوس الانتماء إلى الحزب يعلمون ذلك، يعلمونه كما يعلمه من هم جديرون بأن يعلموه. ولسوف يفهم هؤلاء وأولئك المقصود، ويفكون الرموز، ويرون الحجاب الذي يخفي الحقيقة.

أمّا الآخرون والخصوم والجمهور، بما في ذلك جمهور المنخرطين في التجمع الحزبي، فسوف يتقبلون التصريحات العلنية باعتبارها أقوالاً صادقة، وسوف يظهرون، على هذا الأساس نفسه، غير جديرين بتلقي الحقيقة السرية، وبأن يكونوا جزءاً من النخبة.

يعرف من اجتازوا طقوس الانتماء إلى الحزب وأعضاء نخبته - وذلك بنوع من المعرفة الحدسية المباشرة[32]- التفكير الباطني والعميق للرئيس، ويعرفون الغايات السرية الحقيقية للحركة [الحزب]. لذلك لا يحصل لهم الاضطراب أو الارتباك بسبب تناقضات التصريحات العلنية وعدم تماسكها: إنّهم **يعلمون**

[31] إنّ النظريات هي أيضاً دعاية. وإن يكن من ينشرها هم من يثقون بها من غير المريدين المطلعين على الأسرار.

[32] ينشأ بالنسبة إلى المريد والتابع - أو من يعتقد أنّه من المريدين والأتباع- نوع من الاتصال الصوفي بينه وبين الرئيس.

أنّ هدفها هو خداع الجمهور، والخصوم، والـ"آخرين"؛ ويعجبون برئيسهم الذي يتلاعب بالكذب ويمارسه على نحو جيد. أما الآخرون، أولئك الذين يصدقون، فإنّهم يبينون بتصديقهم نفسه أنّهم لا يحسون بالتناقض، ولا ينفذ الشك إلى عقولهم، وأنّهم عاجزون عن التفكير.

إنّ الموقف العقلي الذي أتينا على وصفه، وهو موقف الأنظمة الكليانية، وخاصة منها النظام الكلياني الأعلى، أي النظام الهتلري،[33] إنّ هذا الموقف يتضمن بكل وضوح تصوراً للإنسان، [أي] أنثروبولوجيا. غير أنّ تعارض الأنثروبولوجيا الكليانية مع الأنثروبولجيا الديمقراطية، أو الليبرالية، لا يكمن بتاتاً في قلب للقيم، إنّه إذ يحط من شأن الفكر والذكاء والعقل، ليضع في قمة الكينونة البشرية القوى الغامضة و"الأرضية" للغريزة والدم.

لا شك أنّ الأنثروبولوجيا الكليانية تلحّ على أولية الفعل، وأهميته ودوره، إلا أنّها لا تحتقر العقل[34] بأي حال، أو على الأقل فإنّ ما تحتقره أو على الأصح ما تمقته، ليس سوى أعلى أشكال العقل: الذكاء الحدسي والتفكير النظري، و**النوس nous** كما كان يسميه الإغريق. أما العقل الاستدلالي والعقل اللجوج والحيسوب، فإنّ الأنثروبولوجيا الكليانية لا تنتقص أبداً من قيمته،[35] بل إنها على عكس ذلك تماماً تضعه في أرفع مقام لكي تنكر وجوده لدى عامة الناس.

لا يتحدد الإنسان في الأنثروبولوجيا الكليانية بالفكر والعقل والحكم، وذلك على وجه التحديد لأنّها ترى أنّ الغالبية العظمى من الناس مجردة من الفكر والعقل والحكم. وفوق ذلك، أما زال يمكننا الحديث في هذه الأنثروبولوجيا عن الإنسان؟ قطعاً، لا. لأنّها لا تسلم بوجود جوهر واحد مشترك بين جميع الناس.[36] فالفرق، بالنسبة إليها، بين إنسان و"آخر"، ليس فرقاً في الدرجة، بل هو فرق في الطبيعة.

يقوم التعريف الإغريقي القديم للإنسان على أنّه **حيوان ناطق-عاقل zoon logicon** على أساس ملتبس: فليس هناك علاقة ضرورية بين **اللوغوس-العقل** وبين **اللوغوس-الكلام**، تماماً كما أنّه ليس هناك مقياس مشترك بين الإنسان بوصفه حيواناً عاقلاً، وبين الإنسان بوصفه حيواناً ناطقاً أو متكلماً. وذلك لأنّ

[33] على الرغم من أنّ الفاشية الإيطالية أحق بهذا الاسم لأسبقيتها في الزمن، فإنّها ليست سوى محاكاة شاحبة للطغيانية [الكليانية] الهتلرية ونسخة كاريكاتورية لها.

[34] إنّها تحتقر الإنسان، وعلى الأخص الإنسان الذي يعيش تحت النظام الاستبدادي الطغياني. انظر R. Avord, *Tyrannie et mépris des hommes*, Franc Libre, n° 16, 1942.

[35] كيف تستطيع أن تتنكر له؟ إنّ الطغيان الذي يحتقر، بصورة رسمية (أي ادعاء وزوراً) العقل والتنظيم العقلاني، لصالح الرؤية والرابطة العضويين، لا يمارس بصورة فعلية سوى أكثر الطرق الميكانيكية تحجراً وجموداً.

[36] يوجد، بالنسبة إلى الأنثروبولوجيا الطغيانية، بين "النخبة" وبقية البشر، بين الإنسان العاقل والإنسان الصِّدِّيق *l'homo sapiens et l'homo credulus*، فرق يساوي الفرق الذي يوجد، بالنسبة إلى الأنثروبولوجيا الغنوصية، بين الماديين والروحيين les hyliques et les pneumatiques، أو الفرق في الأنثروبولوجيا الأرسطية بين الإنسان الحر وبين الإنسان العبد.

الحيوان الناطق المتكلم هو قبل كل شيء حيوان ساذج صِدِّيق crédule، والحيوان الساذج الصِّدِّيق هو بالضبط الحيوان الذي لا يفكر.[37]

ترى الأنثروبولوجيا الكليانية أنّ الفكر - أي العقل، وتمييز الحق من الباطل، واتخاذ القرار، وإصدار الحكم - هو شيء نادر جداً، وانتشاره في العالم ضئيل. إنّه شأن خاص بالنخبة وليس بالجمهور. أمّا الأخير فإنّ ما يقوده أو يحرّكه بتعبير أفضل، هو الغريزة والأهواء والأحاسيس والضغائن. إنّه لا يعرف كيف يفكر، ولا يعرف كيف يريد. إنّه لا يعرف سوى كيف يطيع وكيف يُصدّق.[38]

إنه يُصدّق كلّ ما يقال له، بشرط أن يُقال له بمقدار كافٍ من الإلحاح. وبشرط أن تُدغدغ أيضاً أهواؤه وأحقاده ومخاوفه المفزعة. فلا فائدة إذن من السعي إلى الوقوف دون عتبة شبه الحقيقة: بالعكس، فإنّه على قدر ما يكذب الكذاب بصورة فظة وبكثافة وبصورة فجّة، يكون تصديقه واتباعه أقوى وأفضل.[39] ولا فائدة كذلك من تحري اجتناب التناقض: فلن ينتبه الجمهور لذلك أبداً، كما لا فائدة في تحرّي التوفيق بين ما يقال لهؤلاء وما يقال لأولئك: فلن يصدق ما يقال للآخرين، وكل واحد إنّما يصدق ما يقال له هو **نفسه** لا فائدة في تحري التماسك: إنّ الجمهور لا ذاكرة له،[40] فلا فائدة في أن نخفي عنه أنّنا نخدعه؛ فلن يفهم أبداً أنّ الأمر يتعلق به هو، وبالمعاملة التي نخضعه لها.[41]

هذه الأنثروبولوجيا هي الأساس الذي تستند إليه دعاية أعضاء الـ[حزب] المتآمر في واضحة النهار: والنجاح الذي تلقاه هذه الدعاية هو الذي يفسر ما يكنّه الكليانيون- نقصد النخبة المطلعة- من احتقار يفوق التصور للجمهور؛[42] جمهور خصومهم، وجمهور أتباعهم على حد سواء، والمقصود بالجمهور هنا هو كلّ الذين يصدقونهم ويتبعونهم، وكذلك كلّ من يصدقونهم دون أن يتبعوهم.

---

[37] يسعى الحيوان المفكر إلى التصور أو الإدراك العقلي؛ ويسعى الحيوان المعتقد إلى اليقين.

[38] الاعتقاد، والطاعة، والمحاربة *credere, obedire, combattere*، ذلك هو واجب الشعب. أما التفكير فهو مخصوص للرئيس.

[39] تعمل تقنية الكذب المتعدد وفقاً للمبدأ التالي: "أنا طائر، انظر إلى جناحي؛ أنا فأر، تحيا الفئران"، وتستفاد منها ميزة عظيمة وهي أنّها تتيح الإسرار المزيف la fausse confidence، المعادل السيكولوجي للتدريب المزيف fausse intiation، الذي يجعل المخدوعين يشعرون بالرضا (المزيف) عن كونهم يشكلون حالة استثناء، ويعتقدون أنّهم دخلوا دائرة "السر"، ويتكون لديهم إحساس بالتفوق، ومن ثم بالسرور، وهم يرون الـ"آخرين" مستسلمين للكذب.

[40] "الإيطاليون شماليون"، هذا ما أعلنه ذات يوم موسوليني، بعد ما سخر لسنوات عديدة من العنصرية الهتلرية، أمام الملأ، كما سخر منها كتابة.

[41] لذلك سمح هيتلر لنفسه بتقديم نظريته في الكذب في كتابه **كفاحي**. والقليل جداً من قرائه فهموا أنّهم هم الذين يتحدث عنهم هتلر في نظريته هذه.

[42] على هذا النحو تكتسب فكرة الجمهور أو العامة la masse معنى كيفياً ووظيفياً على نحو ما: يتحدد "الجمهور" بالعجز عن التفكير، وينكشف هذا العجز ويثبت نفسه داخل الاعتقاد في نظريات **الزعيم Führer**، و**القائد Duce**، وغيرهما من رؤساء الأنظمة الطغيانية، وبواسطة هذا الاعتقاد؛ وداخل تعاليمهم، ووعودهم، وبواسطتها. من الواضح أنّ لفظ "جمهور" إذا أخذ بهذا المعنى، فإنّه لن يدل بعدئذ على فئة اجتماعية، وإنّما سيدل على فئة ثقافية، وأنّ أعضاء "الجمهور" [بهذا المعنى] يجندون في الغالب من بين أعضاء "النخب الاجتماعية".

لن نعترض على صحة هذا الموقف، إنّه يبدو لنا نحن مبرراً بدرجة مقبولة. ثم إنّ ممثلي الأنظمة الكليانية وقادتها يسمح لهم موقعهم بالحكم على القيمة الفكرية والأخلاقية لأتباعهم المغفلين المنخدعين بهم.

سنكتفي ببساطة بالملاحظة التالية: إذا كان يمكن اعتبار نجاح مؤامرة الاستبداديين الكليانيين بمثابة حجة تجريبية على [صحة] مذهبهم الأنثروبولوجي، وعلى النجاعة التامة لمناهج التعليم والتربية المبنية على هذا المذهب، فإنّ هذه الحجّة لا تصلح إلا بالنسبة إلى بلدانهم وشعوبهم. إنّها لا تصلح بالنسبة إلى الآخرين، لا تصلح للبلدان الديمقراطية التي جعلها إصرارها المستمر على عدم التيقن السريع مستعصية على التأثر بالدعاية الاستبدادية الكليانية: ذلك لأنّ هذه الدعاية في هذه البلدان، بالرغم من كونها مدعومة بتآمرات محلية، فإنّها لم تستطع في آخر المطاف أن تخدع سوى جزء محدود من الـ"النخبة الاجتماعية المزعومة". وهكذا فإنّ الجماهير الشعبية في البلدان الديمقراطية، التي يزعم أنّها انحطت وتهجنت، إنّ هذه الشعوب هي التي انكشف ـ في مفارقة أخيرة ما هي بمفارقة ـ أنّها وفقاً لمبادئ الأنثروبولوجيا الكليانية نفسها منتمية إلى صنف البشرية الأعلى، ومكونة من أناس يفكرون، وتبيّن، على العكس من ذلك، أنّ الأرستقراطيات الاستبدادية الكليانية المزيفة هي التي تشكل صنف البشرية المنحط، صنف الإنسان الساذج الذي لا يفكر.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com
www.mominoun.com